إسماعيل عليه السلام
البناء.. والشباب

«١»

من أجل الشباب أتحدث ـ بقدرٍ ـ عن قصة الذبيح إسماعيل عليه السلام؛ ففي الآيات التي تنزلت في شأن الذبح وما حصل من إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، والتي أشرقت بها سورة «الصافات» معلم قرآني، فياض بنور الهداية، مثقل بالعبر، زاخر بالدروس؛ يذكرنا من حيث الدعوة إلى الاعتبار: بقوله تعالى في شأن يوسف عليه السلام وإخوته: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

والآيات المعنيَّة في سورة «الصافات» هي قول اللَّه جل ثناؤه في شأن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الصافات: ٩٩-١١١].

ففي مطلع هذه الآيات: يخبر اللَّه تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام، أنه بعدما نصره اللَّه تعالى على قومه وأذاقهم لباس الخزي، في أعقاب يأسه من إيمانهم ـ وقد أصروا على عنادهم بعدما شاهدوا من الآيات العظام الدالة على صدقه ـ هاجر من بين أظهرهم وقال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات: ٩٩]. ودعا مولاه عز

وجل أن يهبه أولاداً صالحين مطيعين ينقادون لأمر اللَّه، يكونون عوضاً عن قومه وعشيرته الذين فارقهم لله، وفي سبيل اللَّه، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات: ١٠٠].

واستجاب اللَّه دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وجاءت البشارة العظيمة ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾[الصافات: ١٠١] رُزقه خليل اللَّه إبراهيم عليه السلام على كبر وقد تجاوز الثمانين، وكان إسماعيل بذلك أول ولد بشر به إبراهيم، وهو أكبر من إسحاق عليهما السلام.

فلما بلغ الغلام الحليم السعي مع أبيه، حيث شبَّ وترعرع، وأطاق مشاركة أبيه فيما يفعله من السعي والعمل: كان الاختبار الإيماني العميق...

أجل لقد جاء الاختبار من السماء، والغلام الذي كان ملء السمع والبصر لوالده الذي رزقه بعد أن كبرت سنه ورق عظمه: يدرج رويداً رويداً على عتبة الشباب؛ حركةً، وحيويةً، وصورةً تألَّق بندى الحياة.

لقد رأى إبراهيم عليه السلام، فيما يرى النائم ـ ورؤيا الأنبياء حق ـ أنه يذبح بيده ولده الوحيد الذي قطع أشواطاً من العمر، بالغاً معه السعي، والذي أطل على ينبوع الشباب المتدفق في عمر فتي من عمر الشباب..

واعتبر الخليل ـ عليه السلام ـ الرؤيا أمراً إلهياً بالذبح؛ وما كان لرسول من رسل اللَّه ـ وهو يبلغ رسالة اللَّه ـ أن يحول دونه ودون إنفاذ أمر اللَّه به شيء، ولو كانت عاطفة الأبوة التي لا تكاد توصف، تجاه ولده المحاطة نشأته بكل هذه الظروف!!

وأعلم إبراهيم إسماعيل بالأمر ليكون أهون عليه، ويطمئن إلى جلده وعزمه وهو في هذه السن على طاعة اللَّه تعالى وطاعة أبيه ﴿مَاذَا تَرَىٰ قَالَ﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحي ثم تلا هذه الآية ﴿مَاذَا تَرَىٰ قَالَ﴾.

ولا تسل عن قوة الإيمان الفاعلة بإذن اللَّه؛ تلك التي كانت محور التحرك بين إبراهيم وإسماعيل كلٌّ حسب الاختبار الذي ابتُلي به.

ترى أيَّ شيء راح إسماعيل يراه جواباً لقول أبيه: ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾؟

الحق أن الفرع الطيب كان امتداداً للأصل الطيب، والنبتة العظيمة في البيت الإيماني العظيم، كانت واضحة الملامح في الاستسلام المطمئن لأمر اللَّه!

من هنا كان الجواب الذي يفيض بندى الإيمان والرضى بقدر اللَّه، مع أهلية الصبر على حكم اللَّه ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

هكذا: يا أبت امض لما أمرك اللَّه من ذبحي؛ فأمر اللَّه لا خيَرة للمؤمن فيه، وسأصبر وأحتسب ذلك عند اللَّه عز وجل الذي أمره كله حكمة، وفي إنفاذ أمره الثواب الجزيل.

﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ إنها الكلمة التي عملت عملها في تاريخ العقيدة وحَمَلَتِها من الرجال والنساء وبناء الإنسان!!

ولعل من الخير ـ على ساحة الحرص على البناء المحكم للإنسان ـ أن لا يغيب عن البال أنه على أرض الرسالة، جرى هذا الحوار المعطاء بين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهما الوالد الذي أمره اللَّه بالذبح، والولد الذي كان مثال الرضى والاستسلام لأمر اللَّه.

لقد استعلن الحق في صدر إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، وعلى لسان كل واحد منهما كما أخبرنا القرآن كتاب اللَّه.

هذا يرى الرؤيا ـ ورؤيا الأنبياء وحي ـ فيسارع إلى مرضاة ربه بالعمل على إنفاذ ذبح ولده ويخبره بذلك، والآخر لا يتردد ولا يستمهل، بل يستجيب على الفور لنداء الحق.

فلا عاطفة الأبوة العميقة الفياضة عند إبراهيم كانت حائلاً ـ ولو على أدنى مستوى ـ دون المسارعة الجادّة للامتثال، ولا غريزةُ حب الحياة الطبيعية عند غلام يافع يدرج على عتبة الشباب حيث بلغ مع أبيه السعي، عاقت ـ ولو بصورة الاحتمال اليسير اليسير ـ عن حسن الاستجابة الصادقة الجازمة ـ للأمر الرباني ـ؛ لقد ملكت عليه نفسَه مشاعر الطمأنينة بأمر اللّه الذي أبلغه إياه أبوه؛ فكانت أقوى من خوف الموت وحب الحياة!!

شباب إسماعيل الوليد يذكرنا بالشباب، وقوة نفسه المتصلة باللّه، ونورُ قلبه المشرق بالعقيدة يذكراننا بما يجب في أعناقنا لفتياننا وفتياتنا على محور الشباب؛ من حشد الإمكانات المتاحة لتكوينهم جميعاً، تكويناً يجمع إلى صفاء العقيدة ـ التي هي القاعدة الصلبة في البناء ـ نقاء الفكر وسلامة البنية، من أجل أن يكونوا جميعاً ـ ذكوراً وإناثاً ـ على المستوى الذي تعدُّهم الأمة لتبوُّئه، فيسهموا في إعادة الأمور إلى نصابها، وتكون هذه الأمة متبوعة لا تابعة تعمر الأرض، وتبني الحضارة المثلى، طاعةً لله.

ألا وإن إسماعيل عليه السلام ـ وهذا ما يجب أن يفخر به الشباب المؤمن ـ خطَّ في تاريخ البشرية خطاً لا يكون امتداده إلا على كواهل شباب يعتزون بالتضحية ـ ولو بأنفسهم ـ في سبيل اللّه، ويضعون إمكاناتهم على طريق نصرة الإسلام، مصحوباً ذلك ـ مع انشراح الصدر ـ بالطمأنينة البالغة والرضى المريح. أولئك شباب تصنعهم يد محمد ﷺ ولد إسماعيل عليه الصلاة والسلام.. تصنعهم يده الكريمة بهديه القولي والعملي ـ ناهيك عن الممارسة والقدوة ـ ثم ما فهمه أئمة الهدى من هذا الهدي الميمون عبر التاريخ علماً وتجربة ونشداناً لسعادة الدنيا والفوز المبين يوم الدين.

الشباب.. والبناء في قصة إسماعيل

«٢»

﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[الصافات: ١٠٢].

من خلال المعلم القرآني في سورة «الصافات» تتفتح لنا من قولة إسماعيل عليه السلام هذه آفاق كريمة يعوز الأمة تمثُّلها على دروب تربية الأجيال وبنائها بناءً متكاملاً من الناحيتين النفسية والعملية، يسمو بالفرد ليكون النواة الصالحة في مجتمع أمثلَ تقوده شرعة الإسلام.

إن إسماعيل عليه السلام يقول لوالده جواباً على قوله: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ وهذا في لغة عصرنا منتهى سلامة التصور لموضوع إزهاق الروح..

أن يُقدمَ والد على ذبح ولده: أمرٌ يتنافى في الأصل مع عاطفة الأبوة العميقة في أغوار النفس؛ إذن هنالك الأمر الإلهي من الخالق الذي أنعم بالولد على إبراهيم في سن متأخرة. وما كان للمؤمن إذا قضى اللّه أمراً أن يكون له الخيرة من أمره.

من أجل هذا قال: يا أبت افعل ما تؤمر، ولم يقل: افعل ما بدا لك.

لقد نمت في نفس إسماعيل بواعث الخير ومحبة اللّه، حتى استعلى على كل الصعاب الغريزية في حب الحياة والخوف من الموت وغيرهما.

وفي واقعية تعين على تحديد الملامح لشخصية إسماعيل ـ وهو في هذا الشباب الغض ـ يقول عليه السلام لأبيه:

إذن الأمر شاق وصعب على النفوس؛ فهو يحتاج إلى صبر، ولم يتعاظم بدعواه عليه الصلاة والسلام، بل ربط ذلك بمشيئة اللّه؛ إذ كان ممكناً أن يقول: ستجدني من الصابرين، ولكن الصبر نفسَه ليس بالأمر الهين؛ فقال: ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ .

ثم ما هذه الطاعة؟ إن إسماعيل مدرك أن طاعة أبيه من طاعة اللّه فهو يطيع أباه، ويعينه على طاعة ربه عز وجل.

جميل جداً أن يكون الشاب قوياً في ذاته وقلبه وعقله؛ فالمؤمن القوي خير وأحب إلى اللّه من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير ـ كما صح عن رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام، ولكن الأجمل منه: أن يكون ـ بإيمانه وصبره ـ أقوى وأشد سلطاناً على نفسه ورغباته ودواعي حب الحياة؛ مما لا يقدر عليه إلا الأفذاذ من العظماء، وأن يصدر ذلك منه مقترناً بهضم النفس والأدب الجم مع اللّه تعالى.

والواقع أن مما يزين طريق الشباب ـ على مر العصور ـ: أن يكونوا في صدق العزيمة والاستعلاء على الصوارف من معوقات ومغريات وترغيب وترهيب، على نسب متصل بوقفة إسماعيل الصابرة الشجاعة المشرقة بخالص الإيمان؛ تلك الوقفة التي تزينها الاستعانة الصادقة بمن بيده ـ سبحانه ـ نواصي العباد، وإليه ـ جل شأنه ـ مرجعهم ومآبهم يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله.

فلئن كان إبراهيم عليه السلام النموذج الرائع القدوة في هذه الواقعة التي كان الاختبار فيها للجميع، والتي تركت بصماتها في حياة بني الإنسان بعامة وفي حياة المسلمين بخاصة.. للأب الذي يمتثل أمر ربه ـ بلا توانٍ ولا تردد ـ في ذبح وليده الوحيد الذي رزقه وقد بلغ ما يجاوز الثمانين عاماً من السن.. ثم للأم التي لم يثبت عنها أي اعتراض، نعم للأم وما أدراك ما الأم.. دليل الموافقة التاسعة على إنفاذ أمر اللّه.

لقد كان إسماعيل عليه السلام النموذج الرائع القدوة للشاب الذي يدلف إليه ريعان الصبا، فيمتحن ـ وهو على عتبة الشباب ـ فلا يبخل بنفسه امتثالاً لإرادة أبيه ذبحه عملاً بأمر اللّه، وكان له من إيمانه بربه والصدق في طاعته، وطاعة أبيه: ما جعله يستعلي على حب الحياة، وهو أمر غريزي فطر المخلوق عليه، ويكون ـ فيما يصدر عنه، وهو في قمة الابتلاء ـ أقوى من كل نوازع الهوى ورغبات الإنسان، خصوصاً ما يكون منها أيام الشباب حيث يكون سلطانها أقوى وفاعليتها أشد.

إن حب الحياة أمر غريزي، هذه حقيقة نذكر معها قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[النساء: ٢٨] ولكن يجب أن نقدر الأمر قدره أيضاً عندما يكون ذلك التحدي في فورة الصبا، حيث يطل الشاب على ساحة الحياة، يملأ جوانحه الأمل، ويتطلع إلى المستقبل بثقة واطمئنان.

ثم إن الآية الكريمة توحي بحقيقة، من الخير أن تكون في الحسبان ـ ونحن نتطلع إلى الواقعة وما تفيض به من عظات ودروس على طريق البناء ـ هذه الحقيقة: هي أن الإقدام على الموت في ساحة القتال ـ مثلاً ـ قد يكون من بعض الوجوه أيسر على النفس من هذا الذي طُلب من إسماعيل عليه السلام.

لقد وُضع إسماعيل عليه السلام الفتى موضع الاختبار الصعب عندما أبلغه أبوه إبراهيم عليه السلام ما يعني أن يوافق على إسلام نفسه للذبح ـ وإن كان ذلك على صورة أخذ الرأي،؛لأن الأمر من عند اللَّه ـ. أجل طلب منه ـ بالصورة المومئ إليها ـ أن يسلم نفسه ليذبح كما يذبح الكبش، وليس ذلك في سهولته ويسره، كما لو كان ـ وهو الفتى اليافع ـ يصول ويجول في المعركة ـ وبيده سلاحه الذي يعمل عمله في دفع القتل ـ يرى دم القتيل أو الجريح يجري، ويسمع أنين المصاب هنا وهناك، نعم يرى ويسمع الكثير الكثير مما يهوِّن عليه ـ إلى جانب المواجهة والبواعث النفسية ومنها طلب الشهادة في سبيل اللَّه ـ أن يستقبل الموت بحرارة وقبول؛ ومعاذ اللَّه أن يكون هذا تهويناً من شأن القتال في سبيل اللَّه والمقاتلين، ولكنه وضع الأمر في نصابه في استجابة إسماعيل عليه السلام لما طلب منه.

ولقد كان صادقاً فيما وعد به أباه؛ فلم يتلكأ ولم يستأخر، ومن أجل ذلك وصفه اللَّه تعالى بصدق الوعد ـ وإن كانت وقائع هذه الصورة كثيرة في سلوكه ـ فقال تعالى في سورة مريم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: ٥٤] ألا ما أسعد الشباب وأسعد الأمة بهم حين يتحلَّون بأخلاق الإيمان والرجولة، وتسمو بهم عزائمهم إلى أن يكونوا جنوداً بل قادة عملية التغيير إلى ماهو الأفضل في أوقات عصيبة عزّ فيها الرجال على الساحة الكثير من أشباه الرجال!!.

الشباب.. والبناء
في قصة إسماعيل
«٣»

إن الذي رأينا من خلال المعلم القرآني في سورة «الصافات» من قصة إبراهيم مع ولده إسماعيل عليهما السلام، وما كان من إسماعيل في مسارعته إلى الاستجابة لأبيه، كما سارع إبراهيم إلى طاعة ربه فيما أمر.. يقودنا إلى أن ما صدر عن إسماعيل ـ بخاصة ـ وهو في مقتبل الشباب، ذو دلالة عظيمة على أن هذه الثمرة من طاعته لله وطاعته لأبيه ومعاونة أبيه على طاعة اللَّه، متجاوزاً كل عقبات الاستمساك بالحياة، وما تفرضه غريزة حب البقاء، إنما كانت ـ مع توفيق اللَّه تعالى ـ نتيجة مجموعة من العناصر الفاعلة المؤثرة، من تنمية للعقيدة والفضائل، وتطويع للنفس على مستلزماتها ومقتضياتها، وتربية على الطاعة وكل ما فيه مرضاة اللَّه تعالى، وبناء متكامل في العقل والقلب والمشاعر، ولّد سلامة الإدراك، ونور البصيرة، حتى كان حبُّ اللَّه تعالى أقوى من كل حبٍّ لما في هذه الدار.

وهكذا يمكن القول: بأن هنالك تكاملاً في التكوين سما بإسماعيل ـ بتوفيق اللَّه وعونه ـ إلى أن تكون استجابته لما هو بر بأبيه ـ وهو رسول يوحى إليه ـ أعظمُ وأكبرُ في نفسه من أي ميل أو رغبة أو رهبة.

أجل لقد كان إيمان إسماعيل عليه السلام أقوى من الخوف، وطاعة أبيه التي هي من طاعة اللَّه أعظمُ من الموت امتثالاً لأمر اللَّه عز وجل.

ورجال التضحية هؤلاء هم الذين يحملون عبء صناعة التاريخ المشرِّف، ويحملون الإنسان ـ أياً كان هذا الإنسان وفي أي عصر وجد ـ على أن يذكر صنيعهم العظيم؛ لأن عطاءهم كان أكبر حجماً وأعمق أثراً مما قد توهم النظرة العجلى إلى واقعة أين تجد مثيلها في حياة بني الإنسان.

وأنت واجد من خلال ما حصل: أن الشباب بقوته وعنفوانه كان رافد نصيحة وسموٍ فوق كل المثبطات والمعوقات. وهذا يعني ـ أول ما يعني ـ أن طاقة الشباب إنما تعطي عطاءها الذاتيَّ إذا أحسن وضعها في المناخ الطبيعي، وهيئ لها أن تجري في قنوات، لا تصطدم مع الفطرة، ولا تجفو الحرية وإنسانية الإنسان، كما لا تتجاهَلُ معها طبيعة المرحلة التي يمر بها واحدٌ من الشباب.

وفي الوقت نفسه لا تنمي جانباً على حساب جانب آخر مما يحدث نوعاً من الترهل المضني في هذا الجانب وهزالاً أسوأ منه في الجانب ذاك.

إن النموذج العظيم الذي رأيناه في إسماعيل عليه السلام: تضحيةً، وثباتاً، وتفانياً في الطاعة وضبط النفس، مضموماً إلى ذلك قوة جسمية وقدرة على الرمي، كما قال عليه الصلاة والسلام فيما أخرج البخاري من رواية مسلم بن الأكوع رضي اللَّه عنه: «**ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً**» كل أولئك جدير بأن يحفز الرواد المؤتمنين على التربية هنا وهناك في حياة الأمة، أن يحسنوا رحلتهم مع الشباب، كيما يمكنوهم ـ وقد تكاملت بنية الواحد منهم في شتى الجوانب ـ من العطاء.

وإنما يكون ذلك ـ بعد غرس الإيمان وعوامل نموه ـ بمراعاة مراحل العمر، وأن يكون البناء مبكراً مرحلةً تسلم إلى مرحلة، بمنهجية بعيدة عن الثغرات، أو تجاهل ما لا يصح تجاهله في سن الشباب.

وانظر إلى حكمة إبراهيم عليه السلام في ذلك؛ لقد كان، وهو يعالج الأمر الجلل سواء بالنسبة إليه أو بالنسبة لولده ضمن الظروف والملابسات المحيطة.. لقد كان عنوان المربي الحصيف الحكيم سعةَ أفق ونور بصيرة... أجل وهو يعالج ذلك الأمر مع خطورته وأهميته ودقة الحساسية فيه؛ حين لم يجنح إلى إبلاغ ولده الذي بلغ معه السعي، الأمر الجازم عن اللَّه وكفى، بل راعى حجم القضية وكل ما قد يحيط بها فقال:﴿**يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ**﴾ [الصافات: ١٠٢].

إنه الاقتران العظيم بين إبلاغ الرؤيا ـ ورؤيا الأنبياء وحي ـ وبين منح إسماعيل فرصة هي في موضعها تتناسب كل التناسب مع إنسانيته وشبابه ومشاعره في تلك المرحلة، كيما يكون ـ في ظل حريته وإنسانيته ـ شريكاً أيضاً في طريقة التفكير ـ وفق إعداد سليم ـ لتنفيذ أمر اللَّه.

وهكذا يكون واضحاً من الناحية المنهجية في التربية والإعداد: أن من الحكمة والحصافة بمكان: أن يخاطب الشباب ـ ضمن مرحلة السن والروافد والملابسات ـ على أنهم شباب؛ ولذلك له ماله من الحقوق ـ مع ما يقع عليه من واجبات ـ، لا معالجتهم على أنهم في مرحلة من السن والأحاسيس والمشاعر وطريقة التفكير والبواعث، كأنهم في سن من يخاطبهم من الكبار ذوي التجارب، حين يكون الواحد منهم قد تجاوز مرحلة الشباب، وأثقلت حياته بتلك التجارب، ومهدئات الثورة والفورة.

وفي حياة إسماعيل عليه السلام ما يوحي بالتكامل في التربية، إيماناً وعقلاً وقلباً ومشاعر وأحاسيس.

وإنها لنظرات نجدها غاية في الوضوح والدقة في منهج التربية القرآنية كما توحي به معالم الكتاب العزيز.

وإذا كان لا بد من متابعة النظر في قصته، المنوَّرة المعلِّمة، لما تزخر به من عبر وعظات: إن علينا أن نقرأ هذا التاريخ فنحسنَ قراءته، ونعيَ وقائعه بإدراك وعمق بالغين، كيما يكون ذلك رافداً متميزاً في تأثيره وفاعليته على طريق نبتغي من ورائها أن تكون عنوان يقظة مرجوَّة وانطلاق.

وفي هذا التاريخ شبابٌ أسهموا في بناء حضارتنا أيّما إسهام، وبناء محكم لأولئك الشباب ـ ذكورهم وإناثهم ـ وتنمية خيِّرة مكينة للطاقات النافعة المنتجة في الشباب، وتلكم من العبر التي تضعها أمانةً في الأعناق: معالم القرآن الكريم.

الشباب.. والبناء
الإيمان والفضل الإلهي في قصة إسماعيل

« ٤ »

في واحد من المعالم القرآنية التي كشفت عن مكارم بعض الأنبياء عليهم السلام، رأينا في الذبيح إسماعيل عليه السلام الشابَّ الذي ابتلي بأن يقدم روحه لله طاعة لأبيه إبراهيم عليه السلام الذي أُمر بذبحه في الرؤيا.. رأينا فيه نموذجاً قدوة للشباب في مهيَع الصِّبا حين يعتصم بالإيمان، ويتلذّذ بالطاعة، ويوظف طاقته وما آتاه اللَّه من قدرة تزدان بها حيوية الشباب، في سبيل اللَّه.

كما رأينا في الطريقة الحكيمة الرائعة التي سلكها إبراهيم عليه السلام مثالاً ـ هو من دلائل النبوة ـ للمربي الأمين، حين يريد أن يشدَّ الشباب إلى الواجب، وأن يندبهم إلى معالي الأمور، وصنائع الإحسان.

حيث رأى أن يسوس ولده في أمر طلبه للذبح بحكمة هي من معدن النبوة ـ كما أشرت آنفاً ـ فكان منه ما أخبر به القرآن الكريم: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢].

الأمر جدٌّ خطير، والسن مبكِّرة على عتبة الشباب وريعان الصبا، وإنها الإطلالة على الفسيح من العمر تستدعي الأسلوب الحكيم.

لم يقل لولده ـ وقد بلغ معه السعي وقد بلغه هو الكبر ـ: هيا أعدّ نفسك للذبح لأنه مطلوب مني أن أذبحك، ولكن ذكَّره بأمر اللَّه له بذلك من طريق الرؤيا الصادقة، وعرض عليه الأمر بالطريقة التي نرى في الآية الكريمة؛ وسرعان ما

كانت الاستجابة الصابرة المطمئنة من إسماعيل ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ وأخذ إبراهيم الأهبة للذبح واضعاً إياه على الهيئة التي تصلح للشروع بتنفيذ أمر اللّه.

وكان من وراء ذلك الفرج بعد الشدة والخير الوفير؛ حيث أكرم اللّه النبيين الكريمين الوالد والولد عليهما الصلاة والسلام بالفداء، وأنّى للكلمة الأرضية أن تتسع للإحاطة بوصف تلك اللحظات.. وسبحان المنعم المتفضل!!

ذلكم قول اللّه جل ثناؤه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الصافات: ١٠٢-١٠٥].

هكذا تأذنت العناية الإلهية بالفضل العظيم، إكراماً لمن واجها بالإيمان والصبر البلاء المبين: إذ لما خضع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لأمر اللّه، ووضع الوالد ولده على الهيئة التي يتمكن معها من إنفاذ أمر اللّه بذبحه، جاء النداء لإبراهيم أن قد فعلت المستطاع من أمر الذبح، وذلك يكفي، فهو تصديق الرؤيا، وكذلك يجزي اللّه المحسنين الذين يمتثلون أمره، فلا يعوقهم عائق كائناً ما كان مبعثه، ولا يحول دون إنفاذه حائل مهما بلغ من الأيد والنفاذ.

وكان الفداء بذبح عظيم، وأحسن اللّه ذكر خليله عليه السلام في الآخرين، ألم تر إلى قوله تعالى في سورة الصافّات نفسها: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الصافات: ١٠٩-١١١]. أي سلام منا على إبراهيم، وكما جزيناه نجزي المحسنين. وكرر ذكر الجزاء ـ كما يقول العلماء ـ مبالغة في الثناء عليه، ثم علّل ذلك بأنه ـ عليه السلام ـ كان من أهل الرسوخ في الإيمان وصدق العبودية للّه عز وجل؛ فالقاعدة التي قام عليها البناء: هي الإيمان والعبودية ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الصافات: ١١١] واستحق بذلك إبراهيم ما نطقت به الكلمة القرآنية من الثناء.

ومما يجدر ذكره: أن شريعة الأضحية في الإسلام درس بالغ الأهمية متجدد في وجوب التضحية في سبيل اللَّه، فهي مرتبطة أيَّما ارتباط بهذه الواقعة العظيمة، التي لم يبخل فيها الشيخ الطاعن في السن بالإقدام على ذبح ولده الوحيد الذي رزقه وقد ألمت به الشيخوخة، امتثالاً لأمر اللَّه، كما لم يبخل الشاب ـ وهو في ريعان الصبا ـ بروحه طاعةً لأبيه التي هي من طاعة اللَّه.

وكان فضل اللَّه عظيماً على إبراهيم وإسماعيل بالفداء، وعلى أمتنا ـ اعتباراً بهذا الأمر الجلل الذي جرى ـ بشرعة الأضحية المباركة، فله الحمد والمنة سبحانه.

وبعد: فإن الناظر في كتاب اللَّه يجد أن إسماعيل عليه السلام قد ذكر في غير هذا الموطن بصفتين عظيمتين هما: صدق الوعد والصبر. وكلتا الصفتين ـ كما يبدو ـ وثيق العلاقة بواقعته مع أبيه ـ.

ففي سورة «مريم» ـ كما سلفت الإشارة من قبل ـ نقرأ قول اللَّه جل ثناؤه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: ٥٤].

لقد صدق الوعد الذي وعده أباه حين قال: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ وكان ذلك خلقه فيما بعد، ويحكي المفسرون أموراً عجيبة على وفائه وصدق وعده عليه السلام.

ولا يخفى أن انعكاس تربية أبيه في حياته كان انعكاساً عميقاً مؤثراً، فعل فعله في سلوكه المتميز؛ فقد وصفته الآية التي تلت بحرصه على بناء بيته بناءً يتسم بصلاح العقيدة والاستقامة على أمر اللَّه، وهذا ما جعله مرضياً عند ربه سبحانه ذلكم قوله تعالى في سورة مريم نفسها: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾[مريم: ٥٥].

فالبناء لا بد أن يبدأ من الأسرة بعد الفرد، لأنها هي اللبنة الأولى في المجتمع؛ فبمقدار ما تُحكم الأمة البناء في هذه الخلية الأولى ـ التي عني بها القرآن وبيانُه من السنة ـ تضمن قدراً أكبر من السلامة في بنية المجتمع. وهكذا ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ مؤذنة بخيريَّة هذا السلوك في أخذ نفسه وأسرته بما يرضي اللَّه تبارك وتعالى.

أما عن الصفة الثانية ـ وهي الصبر ـ: فذلك ما آذن به قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[الأنبياء: ٨٥] فاللَّه تعالى يقول لنبيه ﷺ: واذكر لقومك قصة كل من إسماعيل بن إبراهيم، وإدريس بن شيث وذي الكفل ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: ٤٥] على خلاف بين العلماء في ذي الكفل أهو نبي أو رجل صالح كثير . فقد بدئت الآية بإسماعيل الذبيح عليه السلام وكأنها تعلن أحقية صدقه عندما قال لأبيه في شأن الذبح: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] حقاً لقد صبر على طاعة أبيه وصبر على أن يكون عوناً له على طاعة اللَّه في ذبحه تصديقاً للرؤيا.

وما من ريب في أن معتصم الشباب من الخيبة في أنفسهم وفي حياة الأمة أن يكونوا ـ وهم المؤهلون للعطاء بطاقاتهم وإمكاناتهم ـ على الصراط السوي إيماناً واستقامة ـ فلا يحيدون عن تقوى اللَّه وطاعته والصبر على ذلك مهما كلف الثمن. وما أروع قصة إسماعيل في هذا، والجنوح عن ذلك هو الضياع بعينه، وإذا ضاع الشباب: خسروا أنفسهم وخسرتهم الأمة، والحق والواجب متبادلان؛ فبمقدار ما نذكر من الميادين المعدَّة للشباب من أجل أن يملؤوها بالنشاط والحياة: على الأمة أن تحسن بناءهم في القلوب والعقول والأجسام. في حرص على إحلال الحرية والكرامة ومراعاة مراحل السن والتطلعات مكانها من التعامل معهم وهم النسخ الأقوى في حياة هذه الأمة.

وسلام على إسماعيل في عيون الشباب صدِّيقاً نبياً صابراً شجاعاً أنار طريق الشباب حتى تقوم الساعة، فكانت قصته أمانة في الأعناق ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[الصافات: ١٠٢].

الشباب.. والبناء قصة إسماعيل.. ورفع قواعد البيت مع أبيه

«٥»

وقفتنا الكلمة القرآنية فيما سبق: على أنه كان من إكرام اللَّه لإسماعيل عليه السلام أن وصفه بصدق الوعد والصبر كما سجل القرآن؛ وذلك: لما كان من استسلامه لأمر اللَّه في شأن الذبح دون أن يجد أيَّ حرج في نفسه، وما كان من هذا التسليم المطلق الذي يدل على إسلامه الوجه لله بصدق وطمأنينة بالغة.

ويظهر ذلك جلياً إذا وضعنا في الحسبان دائماً: أن ما حصل من إسماعيل عليه السلام، كان منه ـ وهو على عتبة الشباب حين بلغ السعي مع أبيه ـ.

والواقع أنا أتينا على ذكر هاتين الصفتين لارتباطهما ارتباطاً وثيقاً بواقعة الاستسلام للأمر في شأن الذبح، غير أن اللَّه تعالى قد وصفه في آية أخرى بأنه من الأخيار، والخيرية حين تنسب إلى الإنسان من قِبل مولاه تبارك وتعالى تكون أمراً يعز على الوصف، فاللَّه تعالى أعلم بشؤون عباده؛ فهو الذي خلقهم ويعلم ما يسرون وما يعلنون.

إسماعيل ـ وهو في ميعة الصبا ـ يسمو ويسمو بعقيدته وتوكله على اللَّه وصبره ووفائه: حتى يكون منه ما يكون، ويظل ذلك نوراً هادياً على طريق الإنسانية... قرآناً يتلى حتى يرث اللَّه الأرض ومن عليها، فلا بدع أن يكون من كرم اللَّه وفضله أن يجعله من الأخيار، ذلكم قوله جل ثناؤه في سورة ص: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾[ص: ٤٨] ثم قوله في شأن هؤلاء وشأن أولئك المكرمين ممن سبق ذكرهم من الأنبياء في السورة نفسها، ثناءً عليهم وبياناً لأقدارهم

العظيمة، ولما أعد لهم في الآخرة: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾[ص: ٤٩-٥٤].

وفي معرض تفضيل النبي على الناس من أهل زمانه جاء ذكر إسماعيل في قول اللّه جل وعز: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾[الأنعام: ٨٦].

ترى! إلى أي حد نما حبُّ الخير وصالح العمل عند إسماعيل حتى جعله اللّه من الأخيار ومن المفضلين على الناس من أهل زمانه!!

غير أن هذا كله لا يصرفنا عن قضية هي على غاية الأهمية في حياة إسماعيل عليه السلام، وهذا ـ واللّه أعلم ـ مرتبط أيما ارتباط بواقعة﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ تلك القضية هي مشاركته أباه إبراهيم عليهما السلام في رفع قواعد الكعبة، يا للسواعد الكريمة الأمينة ترفع قواعد البيت المعظَّم الذي جعله اللّه مثابة للناس وأمناً، وكان أول بيت وضع للناس، وما زال ولن يزال مهوى الأفئدة وقبلة أهل التوحيد، والمثابة التي تسمو على كل مثابة في الأرض. ذلكم قوله تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧].

وليس أمراً هيناً في تاريخ البشرية أن يعهد اللّه إلى إبراهيم وإسماعيل في تطهير هذا البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود، دون أن يكون ذلك محدوداً بزمان؛ فهو أمر يسعد به كل أولئك الذين استجابوا لأذان إبراهيم، حاجين ومعتمرين حتى يرث اللّه الأرض ومن عليها.

وهذا العهد جاء ذكره في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: ١٢٥].

ومما يستوقف المتدبر لآيات اللَّه: أن ما جاء في شأن رفع قواعد البيت: دلَّ بأوضح عبارة أن عملية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لم تكن عملية رفع حجر من بعده حجر ليقوم الجدار وحسب، ولكنها كانت عمليةً تمثِّل إعلان التوحيد في دنيا الناس، وأن إسلام الوجه لله عز وجل هو الوضع الطبيعي الذي يجب أن يكون في علاقة المخلوق بخالقه جل وعلا.

من أجل ذلك رأينا النبيين الكريمين عليهما السلام يرفعان القواعد ويدعوان اللَّه بالقبول، ثم يفيضان بهذا الدعاء لهما ولمن يأتي بعدهما من الذرية عبر القرون على محور هو الإسلام الذي يعني التوحيد الخالص، وإفراد اللَّه بالعبودية وإسلام الوجه له سبحانه فيما يأمر وفيما ينهى، وكما الرضى بأمره في كل شأن من شؤون العباد صغر أم كبر، ذلكم قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٨].

ألا إنها دلالة مشرقة في تاريخ الإنسان أن يكون من إسماعيل ما يكون استسلاماً لأمر اللَّه، وتتكامل القضية فنرى أن اللَّه أشرك الشاب مع أبيه الخليل في حدث هام هو من أعظم المعالم المشرقة الهادية في دنيا الناس؛ وما أجمل أن يعي شبابنا حقيقة العزيمة تلو العزيمة وأن فضل اللَّه على الناس كائن بلا حدود.

الشباب.. والبناء..
إسماعيل.. ورفع قواعد البيت

«٦»

جرت الإشارة في كلمات قريبات إلى أن ما قام به إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من رفع قواعد البيت الحرام، لم يكن رفع حجر فوق آخر ليقوم البناء وحسب، ولكن العملية كانت إعلاناً عن كلمة التوحيد في الناس، وإيذاناً عميقاً لا يحتمل اللبس، ولا يحدُّه زمان: بأن طبيعة العلاقة بين الخالق جل وعلا وعباده: يجب أن تقوم على إسلام الوجه له سبحانه والانقياد له في كل ما يأمر وينهى.

ولنترك للآيات الكريمة تخط لنا معلم الضياء في هذه القضية الكبرى التي أكرم اللَّه بها الشاب إسماعيل عليه السلام بأن جعله شريك والده الخليل إبراهيم عليه السلام فيها، ذلكم قوله جلّت حكمته في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧].

فإن الذي يُهم العاملين الصادقين: أن يقع عملهم موقع القبول عند اللَّه عز وجل وإنما يتقبل اللَّه من المتقين. فإبراهيم وإسماعيل يرفعان قواعد البيت، ويدعوان هذا الدعاء المشترك ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. إنه سبحانه يسمع دعاءهم ومناجاتهم، وهو ـ جل شأنه ـ العليم بذات الصدور. وقد بارك اللَّه عملهما وأكرمهما بالقبول ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧]. ويأتي المطلب الكبير الكبير ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٨].

إنهما يدعوان اللَّه بأن يجعلهما منقادين له في أمره ونهيه، مخلصين له الوجهة والدين، لا يوجهان وجههما إلا إليه، مستسلمين دائماً لما يريد سبحانه..

ولا يقتصر أمر هذا المطلب عليهما، بل يسألان المولى أن يجعل ذريتهما أيضاً أمةً مسلمة له. واستجاب اللَّه دعاءهما وكانت أمة محمد عليه الصلاة والسلام.

وليس من مكرور القول أن نذكِّر هنا بأن الإسلام بمعناه العام ـ وهو الانقياد لله تبارك وتعالى وإسلام الوجه إليه ـ هو عماد دعوة الأنبياء عليهم السلام والقدر المشترك بينها، وهو صلب القضية طبعاً في ديننا الحنيف.

ولكن الإسلام بمعناه الخاص: هو الرسالة التي أوحي بها إلى نبينا محمد صلوات اللَّه وسلامه عليه بما فيها من شريعة نسخت ما قبلها من الشرائع، وهي الواجبة الاتباع، والإسلام بهذا المعنى الخاص هو المقصود بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة:٣] وقوله جل وعلا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[آل عمران: ٨٥] فهو الدين الذي ارتضاه لعباده وتعبدهم به وعليهم جميعهم أن يعتنقوه ويتوجهوا إلى اللَّه بشعائره وأحكامه؛ ولذلك عندما دعا رسول اللَّه ﷺ نصارى نجران إلى الإسلام ولم يستجيبوا وجادلوا فيما لا طائل تحته: أُمر الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام أن يدعوهم إلى المباهلة، وذلكم قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[آل عمران: ٦٤].

هذا وعلى أساسٍ من إسلام الوجه لله كان من دعاء إبراهيم وإسماعيل ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾[البقرة: ١٢٨] أي علمنا شعائر عبادتك وكيف نحج ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٢٨].

وكل من أسلم وجهه لله على هذه الشاكلة: لا بد أن يكون مسلماً لأنه سيصدِّق بوحي اللَّه إلى نبيه محمد صلوات اللَّه وسلامه عليه وأن الدين عند اللَّه الإسلام، وإلا كان قوله مجرد دعوى.

ومما لا ريب فيه أن الانقياد لأوامر اللَّه وإخلاص الوجهة له: من أهم عناصر البناء على صعيد الفرد والجماعة، ويظل هذا الاستسلام لأمر اللَّه ينمو وينمو، حتى يأتي صاحبه بالعجب العجاب.

إن العوائق التي تشغل اليوم عن صعود المرتقى الصعب، وكثيراً ما تقف دون شبابنا ودون تحقيق ما يراد، ليس من سبيل لزحزحتها إلا إعادة النظر في البناء والتكوين، ليكون حقاً من هذا المنطلق.. الأمر الذي يسمح بتنمية الطاقات الخيرة التي تنهزم أمامها نوازع الخلود إلى الراحة والركون إلى الانحراف وأهله الهدامين.

وإذا قلنا بإسلام الوجه لله منطلقاً في بناء الإنسان وتنمية مواهبه وطاقاته، فذلك أمر يطول الشباب، كما يطول من يعانون أمر الشباب، لتسير الواجبات والحقوق تحت مظلة هذا الإسلام العظيم.

ولقد رأينا في حياة إسماعيل عليه السلام بناءً وإعداداً وتنميةً للقدرة المتصاعدة التي جعلته عنصر فعالية وإيجابية من طريق المشاركة العظيمة في بناء البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود من أنحاء المعمورة؛ وذلك.. من طريق عظيمة الدلالة في حياة البشرية، طريق الإعلان الإنساني العام أن على البشرية أن تنطلق من نقطة إسلام الوجه لله. ألا ما أجمل وأكرم أن نربي الشباب على الإسلام ونزيل العقبات من طريقهم، وأن نضعهم على الطريق المتسقة مع السن والتطلعات وما تهفو إليه النفوس من الحرية والوجود الذاتي بإيجابية على طريق الواجب والمرتقى الصعب.